الامير عمر طوسون

كما عرفته

حديث لسعادة فؤاد أباظة باشا
مدير الجمعية الزراعية الملكية

رغب الي صديقي رئيس تحرير المقتطف ان آتي بحديث لهذه المجلة من فؤاد اباظة باشا عن المغفور له الامير عمر طوسون . فهو من أكثر الناس معرفة بالامير الراحل الذي كان رئيساً للجمعية الزراعية الملكية

وقد استغرق هذا الحديث مع فؤاد باشا ثلاث جلسات ، تبينت خلالها اساطة واسعة ، وتواضعاً جميلاً من جانب محدثي الكريم . وقد تفضل فأمدني بما ليس لديَّ من مؤلفات الراحل العظيم لمراجعتها في عدد آت

واني بعد أن عرضت على سعادته هذا الحديث فاثره لا يسعني الا شكره باسم المقتطف

محمد عبد الغني حسن

لا أدري أي النواحي عن الأمير عمر طوسون أطرق ، فهو جامع لكل خلال الخير ، ومن أية ناحية نظرت اليه وجدته عظيماً جليل القدر . فكأن الشاعر القديم عناه بقوله :—

كالبدر من حيث التفت وجدتهُ يهدي الى عينيك نوراً ثاقبا

وقد أفاضت الصحف والمجلات الاسبوعية في وصف الأمير ما أفاضت وكانت سيرته موضوع الحديث على كل لسان . وتقل الاديب في كل سامر . فكان رحمه الله الحديث الحسن لكل واع ، والكلمة الطيبة في فم كل متكلم . وما كذب القائل :—

وانما المرء حديث بعدهُ فكن حديثاً حسناً لمن وعى

وهنا قلت لمحدثي . وما أصدق الشاعر حين قال :

تدول أحاديث الرجال وتنقضي ويبقى حديث الفضل والحسنات

***

ولقد وُصفَ رجلٌ فقيل فيه « فتّش عن تجربة » فأنا محدثك اليوم عن الأمير حديث المجرب له ، وقاصٌ عليك بعض ما رأيت منهُ في الجمعية الزراعية التي تشرفتْ برياسته ، وخلت اليوم من مكانه ومكانته . وهو مكان كان رحمه الله فيه ملء السمع والبصر . فقد نزل من بين أعضائها منزلة الاعزاز والتكريم والحب . وتلك منازل يهبها الله لمن يكل اليه الأمر

الكبير والشأن الخطير . وكان حضوره في جلسات الجمعية سبباً الى مبادرة الاعضاء للاجتماع . فكأن بينه وبينهم دوافع وجواذب . والآن وقد انفضَّ منه المجلس ، وتعطل الندي . إلاَّ أن روحه لا تزال مرفرفة ، وحماسته للجمعية لا تزال ماثلة ، تستمد منها المضي الى غاياتها ، والاستمرار على تحقيق أهدافها . ولا أذكر أن جلسة واحدة شهدها الامير فتأجلت لعدم اكتمال العدد القانوني

ولعلك تسألني عن السر في تلك المكانة التي أُنزلها الامير بيننا . وليس في المسألة سرٌّ أذيعه ، ولكنها فضيلة حباه الله بها . وأرى من الوفاء له أن أنشرها . ولم تكن تلك الفضيلة مطوية حتى تنشر ، أو مكتومة حتى تذاع . ولكنا نحن الذين اتصلنا به واقتربنا منه عرفناها له وأكبرناها فيه . ويسرني اليوم أن نذيعها بوساطة « المقتطف » على الذين لم يتح لهم أن يعرفوها بأنفسهم أو يشهدوها بأعينهم

لقد خلق الامير بيننا جوًّا يتجلى فيه الحب لشخصه . وكان حبًّا يكتنفه الاجلال ويحيط به الاحترام . وكان على بعد منزلته دانياً ، وعلى جلال قدره متواضعاً

***

لقد أحببنا الامير لانهُ كان منا وكنا منهُ . وكانت تنزل النازلة بأحدنا فيجد عند الامير حسن العزاء وجمال المواساة ... وكان يحل السرور بأحدنا فيجد عند الامير لطف المشاركة وكرم التهنئة . أليس في ذلك ما يأسر القلوب ويطوّق الاعناق ؟

وأحببنا الامير في الجمعية لانهُ كان يدير مناقشاتها ومباحثاتها في جو هادىء ، مما يفسح المجال للرأي الناضج والفكر المختمر . وكان شر الآراء عنده الرأي الفطير . فلا يصدر القرار إلاَّ بعد البحث الطويل والرأي الحر والاقتناع بالاجماع . فاذا ما تشعبت مسالك الفكر ، واختلفت مذاهب الرأي في الامور الهامة ، أحالها على المختصين من أعضاء المجلس ، وعلى اللجان الخاصة لدراستها دراسة تفصيلية . ثم أخذ رأي المجلس واحترم رأي الاغلبية ، ولو كانت في غير جانبه . بعد أن يطلب اثبات رأيه . ولم يستأثر سموه بذلك الحق لشخصه أو يختص به لنفسه ، بل كان ذلك حقًّا لكل عضو من الاقلية

فأنت ترى انهُ كان معنا يأخذ بالشورى ، ويدع المجال لاصطراع الافكار ومبادلة الآراء . ولا يبت في أمر حتى تدرسه اللجنة المختصة وتعرض رأيها على المجلس لاتخاذ قرار في الامر . والواقع ان ادارة الجمعية كانت تسير — وستظل سائرة ان شاء الله — على المبادىء الدستورية والاخذ بالشورى والخضوع لرأي الاغلبية وكان سموه لا يتعدى اختصاصات المجلس ، والمجلس لا يتعدى اختصاصات اللجان . والجميع لا يتعدّون اختصاص

المدير العام - وكل أولئك في حدود السلطة العليا للجمعية العمومية صاحبة الرأي الأعلى في شؤون الجمعية

فكان نظاماً برلمانيًا دقيقاً رضي عنه الجميع، فاذا ما استقر الرأي على مبدأ من المبادىء كان سموه « نظاميًا » من طراز رفيع وغرار بديع. وكأنما أشرب « النظام » في قلبه، وخالط حبه دمه، فلا يرضى بالعبث به أو الخروج عليه على أية صورة.

ولا شك أن هذه الروح « النظامية » كان لها أثرها بين موظفي الجمعية. فاطرد بينهم النظام، واتسق سير الاعمال. وطبيعة عمل الجمعية الزراعية تقتضي قيام العلاقات مع الحكومات المختلفة. وهنا يقوم عامل لا يتصل بادارة الامير ورياسته أكثر مما يتصل بمركزه وشخصيته. فقد كان لتلك الشخصية المحبوبة والذات الموهوبة مركز ممتاز محبوب وكان لذلك المركز أثره في تيسير أعمالنا. وكانت علاقاتنا بالحكومات المختلفة تقوم على أساس من حسن التفاهم وجميل التعاون.

ومن هنا كان احساسنا نحن بالمصاب عظيماً، وخطبنا في الفقيد أليما.

***

هذا هو الامير عمر طوسون في الجمعية، بل تلك ناحية واحدة من نواحيه المتعددة فيها. ولو شئت أن أقص عليك الكثير من آثاره لتشعب الكلام. فله في كل زاوية منها حجر، وفي كل بقعة أثر، وفي كل عمل لها أحاديث وسير. ولكن المقام لا يأذن.

أما الأمير خارج الجمعية، فاسأل عنه في كل ميدان تره فيه سابقاً. فما تخلف عن شوط ولا قعد عن غاية، ولا أحجم حيث يجب الاقدام. وكنت تراه في اليوم العصيب والازمة المحدقة، والشدة العارمة ثابتاً كالطود، واضحاً كالضوء، صريحاً في الحق، جهيراً بالرأي يخلص النصح ويصدق المشورة، وبخاصة اذا اختلفت النوازع ومالت الدواعي.

وما ألبس، رحمه الله الباطل حقاً، ولا صوّر الكذب صدقاً. بل كان رأيه لله وللوطن، ذلك الذي قال فيه في مقدمة أحد كتبه « هذا الوطن العزيز الذي مهما بذلنا في سبيله من جهد فلن نستطيع أن نوفيه شيئاً من حقوقه الواجبة »

ولم يكن في وطنيته مستبداً ولا متكبراً، بل كان ديمقراطيًا شعبيًا. ولم يفرض على الناس زعامته، بل فرضها عليهم صدق دعوته واخلاص عقيدته. فاذا ما أشكل الأمر، وأعضل الرأي التفت الناس الى الأمير عمر طوسون وتطلعوا اليه فلا يضن بالرأي ولا يبخل بالمشورة. وأدلى بما ينصح به الناصح الشفيق الذي يخلط حلو الكلام بمره، وسهله بوعره ويحرك الاشفاق منه ما هو ساكن من غيره

وهذه المشاركة الشعبية تظهر جلاء في البلاغ الذي صدر من اصحاب السمو الامراء وفيهم عمر طوسون يوم ٣ / ١ / ١٩٢٠ وفيه « جئنا نحن اولاد محمد علي لا لنشارك أمتنا في أمانيها ومقاصدها فقط ، بل لنضم صدورنا الى صدور افرادها ، ونجعل أيدينا في ايديهم حيث اننا لسنا الاّ روحاً واحداً ، حتى نكون جسماً لا يجبر ، وقوة لا تقهر . فنطالب بحقوق وطننا »

وكما كان ممنا في الجمعية من احترام الرأي وتقدير حرية الفكر كان في مواقفه الوطنية . كما جاء في حديثه مع المرحوم الشيخ عبد الحميد اللبان يوم ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٢٠ « وانهُ — أي الامير — وان كان رأيه الخاص الذي يتمسك به كل التمسك هو وجوب حصول البلاد على حقوقها كاملة غير منقوصة فهو يحترم رأي الامة لانهُ رأي الجماعة التي يتحتم احترام رأيها »

فهل رأيت بعد هذا مثلاً لاحترام الرأي من رجل كان يمكنهُ أن يتخذ من شرف نسبه وجلالة قدره مسوّغاً للاستبداد بالرأي والاعتساف في الحكم ؟

وكفاه في الوطنية فخراً أنهُ هو اول من دعا الى ارسال وفد مصر الى مؤتمر فرساي في ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ للمطالبة بحقوقها . وكانت الفكرة اختمرت بادىء ذي بدء في نفسه فحادث بشأنها المرحوم محمد سعيد باشا فاقترح عليه ان يتكلم فيها مع المرحوم سعد زغلول باشا لشخصيته البارزة في الهيئة الاجتماعية وفي الجمعية التشريعية . وقد ظاهر سموه بالفعل الوفد الذي سافر من أجل هذه الغاية وزوّده بماله وجاهه وآرائه

أما السودان فكان للامير همه وشغله ، فهو شديد الايمان بالعلاقة بين الشقيقين ، ولا يدع فرصة تمر من غير توطيدها . وفي كتابه (المسألة السودانية — طبع المستقبل سنة ١٩٣٦) يعرض الادوار التي مرت بالمسألة السودانية عرضاً تاريخيًّا وطنيًّا رائعاً

ولقد اتخذه السودانيون في مصر دعامة لهم وركناً شديداً يأوون اليه فيجدون فيه نجدة الكريم واخلاص الحميم وحصافة الحكيم ، وامتدَّ نائله الى السودان تربة وأرضاً لا دعاية وكتابة ، فعم ريفه وحضره ، وسهله ووعره . وكفاه فضلاً أن البعثتين اللتين أوفدتهما الجمعية الزراعية الى السودان سنة ١٩٣٥ وسنة ١٩٣٧ كانتا من ثمار تفكيره

(الحق ان هذا تواضع من فؤاد اباظه باشا . فالبعثة الاولى كانت من ثمار تفكير اباظه باشا نفسه . فعرضها على الامير فشملها سموه بعطفه وتشجيعه ، هل أغضبت فؤاد باشا لأني أذعت عنه فضلاً رأى حياؤه أن يستره ، وأبى تواضعه أن يذكره ؟ ولكن الفضل أجدر أن ينشر ، وأحق ألاّ يستر ، وقد هداني الى هذه الحقيقة كتاب « السودان » الذي أخرجه

وزارة التجارة والصناعة سنة ١٩٣٨ مطبعة مصر . وقدم له بمقدمة صاحب العزة عبد الرحمن بك فكري — عبد الغني)

***

وكان في الامير عمر طوسون نزعة دينية قوية . فهو يكره الخمر وشاربها . وقد جعل جمعية منع المسكرات بالاسكندرية تحت رياسته الشرفية وأولاها معونته . ومن مآثره انه اقترح على الحكومة المصرية اشتراكها في مؤتمر مكافحة المسكرات المعقود في (انفرس)

وكثيراً ما كان يحارب الآراء الاجتماعية المتطرفة التي باعدت بين المسلمين ودينهم القويم . وهنا يتجلى حفاظه وغيرته

وما كان أشد فرحه حين يرى مسجداً أسس على التقوى ، أومنارة يرتفع منها الأذان باسم الله الاكبر . والمسجد الذي انشئ في قرية (بهتيم) النموذجية هو من وحيه واشارته

على ان هناك في اقصى جنوبي السودان مئذنة عالية لمسجد جديد . ولو كانت تنطق الأحجار وتتكلم الديار لنطق هذا المسجد بأيادي الأمير عمر طوسون عليه

ذلك هو « مسجد جوبا » وتلك هي مئذنته . وهناك في تلك الأرض النائية وذلك المكان السحيق ، يجتمع المسلمون ليولوا وجوههم شطر المسجد الحرام خمس مرات في اليوم ...

ولم يكتف الأمير بتأليف لجنة لبناء « جامع جوبا » تحت رعايته بل بدأ التبرع بمائة جنيه ثم شفعها بألف وألف لانشاء مبان يستغل ريعها للانفاق على المسجد ومرتبات القائمين عليه ، هذا عدا اعانات أخرى لمساجد متعددة في السودان . رحم الله الأمير لقد رفع للدين حوائط ومنائر ، والله يقول « انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر »

***

أما الأمير عمر طوسون الزارع فقد كان فلاحاً بطبعه ، مشغوفاً بالزراعة محباً لاصحابها . وقد وُهبَ في هذا الباب عبقرية خاصةً غذاها بالصبر ، ونمّاها بالجهد ، وأضاف الى حقله المطبوع عقله المصنوع . فبلغ بزراعه مبلغاً نقلها من أرض غامرة الى جنان عامرة بيدين حولتا الجدب خصباً فكأنه الامير أبو دلف الذي مدحه الشاعر بقوله :

ولو يجوز لقال الناس كلهمُ   لولا أبو دلف ما أورق الشجرُ

***

أما اهتمام الامير بالعلم فتنطق به مؤلفاته ومحاضراته وأبحاثه . وكان شديد التتبع لكل كتاب يظهر ، أو بحث ينشر ، أو محاضرة تذاع . فاذا رأى موضعاً للتعليق أو الاعتراض لم يُحجم عن ذلك ، سواء [illegible] الموضوع سياسياً أو تاريخياً أو اجتماعياً . وكان أساريه

في الرد والمناقشة خالياً من شوائب الكلام . فلا يقصد إلا الحقيقة ولا ينشد إلا المصلحة . وما عرفت عنه انه نال من مناظره أو حاول أن يحط من شأنه . ولكنه كان يناظر في أدب العظيم ، وحكمة الرزين

وأروي للقراء مسألة تدل على يقظته وتنبهه لكل ما ينشر أو يقال : فلقد شك أستاذ محاضر ذات يوم فيما جاء بكتاب الامير « مديرية خط الاستواء » من أن ملك أوغنده كان تحت حماية مصر . فاهتم الأمير بالامر . وعزّ عليه أن يخرج هذا الرأي من رأس مصري . وأقنع المحاضر بالحجة والبرهان ان أوغنده كانت حقيقة تحت حماية الحكومة المصرية

أما مؤلفاته فقد ذكرتها الصحف مراراً . ولعلكم تتناولون التعريف بها الى قرائكم في المقتطف تعريفاً يدل على موضوع كل كتاب وقيمته للحق والعلم والتاريخ (سأفعل — ان شاء الله — في العدد المقبل في الباب المستحدث : — التعريف والتنقيب — عبد الغني)

وللامير نواح أخرى كثيرة لو اتسع المقام لأطلت الحديث عنها . الا انني أكتفي بالاشارة الى غرامه بالرحلات والكشف والارتياد . والصحراء الغربية على الخصوص تشهد بذلك . وله على « المتحف الحربي » أيادٍ لا تنكر بين تشجيع وتوجيه واهداء . وله مشاركة طيبة في « متحف الحضارة » الذي اهتم به حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق . فقد حمل الأمير عمر الجمعية الزراعية تساهم في المشروع . وكان — سقت قبره الغوادي — مرجع اللجنة فيما يختص بقسم السودان . وكان اكثر رجالنا اطلاعاً على تاريخ مصر القديم والحديث . ولا يزال المجمع العلمي يذكر له محاضرته بالفرنسية عن فروع النيل القديمة وقد ظل ثلاث ساعات يلقيها

***

وأكبر ما كان في الأمير مروءته وانسانيته، وهمته وحيوية ضميره ، وكان أفق انسانيته فسيحاً لا يضيق بالحدود ولا ينحصر في بقعة من الارض . ولكنه امتد الى بلدان اخرى كموقفه من الحرب الطرابلسية وحرب البلقان وحرب الحبشة . فقد كان دائماً سباقاً الى النجدة سريعاً الى الندى

واذا قال الشاعر الجاهلي في مدح قومه :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم   في النائبات على ما قال برهانا

فان الامير عمر طوسون لم يكن ينتظر حتى يندب . ولكن مروءته كانت دائماً تبدأ . ومعروفه كان دائماً يبتغى . .

تلك أسمى مراتب الانسانية